
تاريخُ الصِناعات
الخشبيةِ والمعدنَيةِ
بالقدسِ
بشير بركات
١٤٤٤هـ ٢٠٢٣ م

تاريخُ الصناعاتِ المعدنيةِ والخشبيةِ بالقدس

بشير بركات

العنوان: تاريخُ الصناعاتِ المعدنيةِ والخشبيةِ بالقدس

المؤلف: بشير بركات

إصدار: قِسم الأبحاث- مؤسَّسةُ دارِ الطفلِ العربي

المكان: القدس

التاريخ: 1444هـ/ 2023م

الواصِفات: القدس، التاريخ، الصناعة، التراث

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ علىٰ رسول الله. تشمل هذه الدراسة أربعةَ فصولٍ تتحدَّث عن تاريخ الصناعات الحديدية والنحاسية والصياغة، إضافةً إلىٰ الصناعات الخشبية والصدفيات. وهي تستندُ إلىٰ مصادر عدَّة، بعضها غير منشور، مع الاستشهاد بالعديد من المقتنيات المحفوظة في متحف التراث الشعبي في مؤسَّسة دار الطفل العربي في القدس.

ولم أتطرَّق إلىٰ بعض المعادن لنُدْرة استخدامها أو لقلَّة أهمّيّتها، كالرصاص مثلًا، الذي كانت تُصنَع منه صفائح لتغطيةِ أسطحِ المباني الضخمة. وتجدرُ الإشارة هنا إلىٰ انتعاشِ الصناعاتِ المعدنيةِ في بيت المقدس، بفضْل توافرِ الفحْم فيها، كسائرِ بلاد الشام، حيث كان يشكِّل الوقودَ الأساسيَّ في تلك الصناعات، بينما كان الحدّادون والنحّاسون يعانون من قلَّة الفحم في مصر.

والله ولي التوفيق

بشير بركات

الصناعات الحديدية

تُعدُّ الحِدادةُ من أقدَمِ الحِرَف التي عرفتْها البشريَّة. فبَعد العصرِ البرونزي ظهر العصر الحديدي، حيث استُخدِم الحديدُ في صناعة الأدوات المنزلية والزراعية والحربية في مختلف البلدان منذ آلاف السنين.

مواقعُ دكاكينِ الحدّادين

لم أعثر علىٰ موْقعٍ مُعيَّنٍ تجمَّعتْ فيه دكاكينُ الحدّادين في بيت المقدس خلال العهد المملوكي، سوىٰ أنّ هناك حُجّة أشارت إلىٰ 'زُقاق الحدّادين برأس عقبة الخواجه زاهد'[1]، في محلَّة باب حِطّة عام 1557م، ويَظهر أنّه سُمّي كذلك قبْل العهد العثماني. كما أنّ كلمة "زُقاق" لا تعني أنّ ثمَّة سوق لهم كانت هناك بالضرورة، فربّما كانت مساكنُ بعضهم في ذلك الزُّقاق فسُمّي 'زُقاق الحدّادين'.

ثم ظهرتْ تسميةٌ أخرىٰ في القرن السابع عشر وما بعده، وهي 'خُط الحدّادين'، الذي أُطلِق علىٰ الطريق الذي يبدأ من ملتقىٰ طريق باب السلسلة

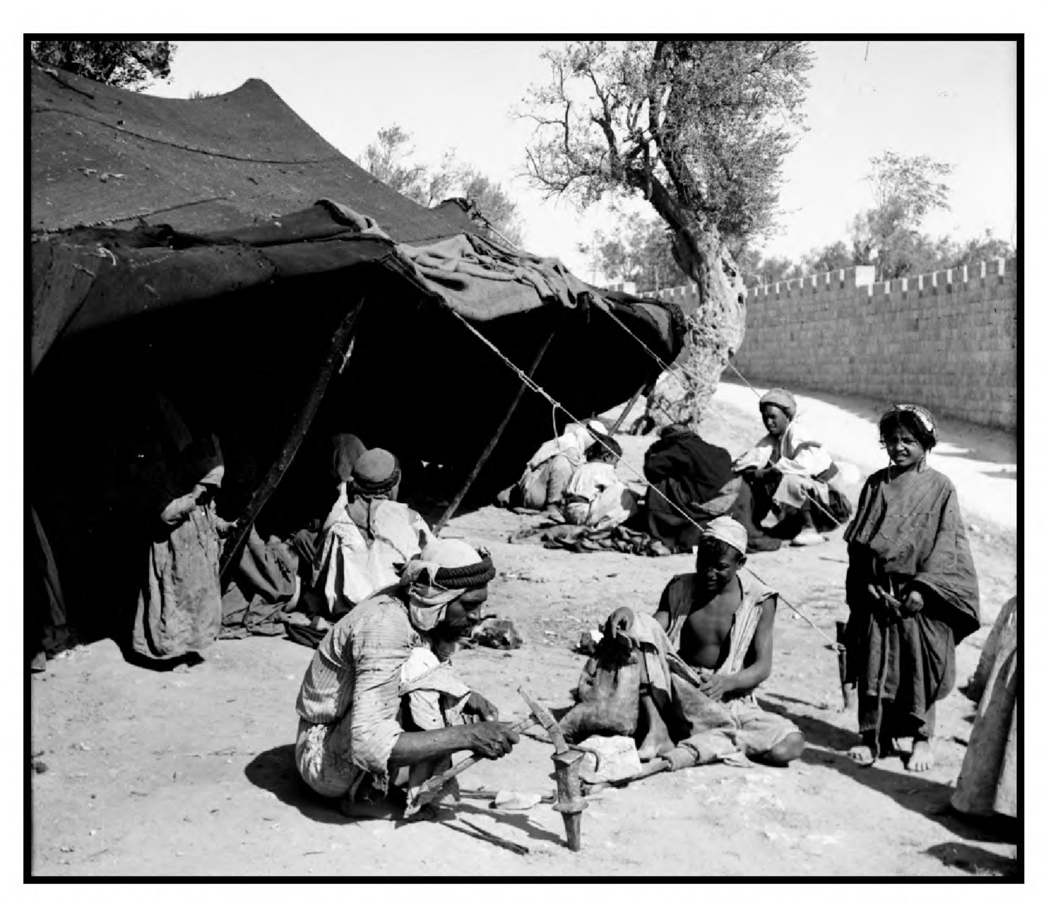
1 تبدأ من ملتقى طريق باب الدوادارية مع طريق المجاهدين صعودًا باتجاه الغرب. ورد ذِكرها في القرنَين العاشر والحادي عشر الهجري. تُنسَب إلى تاجرٍ شمَلت ممتلكاته مصبنة داخل باب العامود خلال العهد المملوكي.

بسوق الباشورة، ويمتدُّ باتجاه حارة اليهود، حيث ورد ذكرُه في حُجّة تعمير دكّانٍ فيه عام 1706م، وتأجير طاحونٍ عام 1723م. وقد أُطلِق علىٰ ذلك الخُط لاحقاً "طريق حارة اليهود" و "طريق المناضلين".

كما اتَّخَذ بعضُ الحدّادين دكاكين لهم في أماكن أخرىٰ، ومنها 'دكّان الحدّاد الجارية في وقف السادة المغاربة' قرب سوق القطّانين عام 1750م، و 'دكّان بخُط داود، بسُوَيقة علّون، المُعدَّة للحِدادة' عام 1814م، و 'دكّان حِدادة بمحلة باب العمود بالصف الشرقي' عام 1870م.

وفي أواخر العهد العثماني ذُكِرَ 'سوق الحدّادين والنحّاسين'، إلىٰ الشمال من سوق اللحّامين، وكان يَضمُّ دكاكين حِدادةٍ، وكان من بينها 'دكّان المَحْدَدة، بيد حسن بن بدير بن بدر قطينة' في الجهة الغربية من مدخل السوق الشمالي عام 1891م. وكذلك، فقد احترَف بعضُ أفراد طائفة النَّوَر أعمالَ حِدادةٍ بسيطة قرب مسجد سعد وسعيد خارج السور.

أما حارة الحدّادين، التي كانت جزءاً من حارة النصارىٰ، بالقرب من باب العامود، فأعتقدُ أنها سُمّيت كذلك لأنّ كثيرين منهم سكنوا بها فحسب، كما هو حال زُقاق الحدّادين المذكور آنفاً، حيث لم أعثرْ علىٰ أيِّ دكّانِ حِدادةٍ فيها خلال العهد العثماني.



حدّادٌ من طائفة النَّوَر، يمارس مِهنتَهُ على طريق نابلس، مقابل جدار مدرسة الآثار الفرنسية، في أواخر العهد العثماني. (المَصْدر: مجموعة ماتسون).

الحدّادون وشيوخُهم

مارس الحِدادةَ حِرَفيّون من مُختلَف الطوائف في بيت المقدس خلال العهد العثماني، كالأرثوذكس والأرمن والأقباط، بالإضافة إلىٰ بعض المسلمين. إلا أنني لم أعثرْ علىٰ يهودٍ مارسوا تلك الحِرْفة.

وكان الحدّادون يُعيِّنون مسيحيًّا من بينهم شيخًا عليهم، نظرًا لارتفاع نسبة المسيحيين بينهم، وفي أواسط العهد العثماني خاصّةً. ويبدو أنهم كانوا جميعاً من

المسيحيين عام 1647م، فبعد أن تفرَّغ ʼعطا الله ولد مسعود النصرانيʻ عن مشيخة الحدّادين، ʼحضر كل واحد من حنا ولد عبّود وخليل ولد إبراهيم ونقولا ولد طعيمة ولطيف ولد المشمّر وميخائيل ولد يوسف وخليل ولد غنايم وسليمان ولد عودة السنبوسكاني، الجميع من النصارىٰ الحدّادين بالقدس الشريف، وتوافقوا أن يكونوا في خِدمة حُكّام القدس الشريف، في صناعتهم سويةً بينهم، من غير إقامةِ شيخٍ عليهم في ذلكʻ، كما يظهر في الصورة الآتية.

مغارمهم

كان الحدّادون، كغيرِهم من الحِرفيّين، يتكبَّدون عِدَّة أصنافٍ من المغارم للدولة وموظفيها. وكان القانون الذي سَنَّهُ السلطان سليمان القانوني، وتمّ تطبيقُه في أوائل العهد العثماني، يشملُ جمعَ الضرائب السلطانية من الحدّادين إلىٰ جانبِ فئاتٍ لا تنسجمُ مع طبيعة عملهم، ففي عام 1541م، تم إرسال ʼزكيّ

الدين بن الزيني عمر، الدمشقي الأصل، الملتَزِم علىٰ الفرحيّة[2] والزطِّ[3] والحدّادين بالقدس الشريف وناحيته"، لجباية المبالغ المفروضة عليهم "علىٰ حسب القانون العثماني".

وكان حاكمُ بيت المقدس يَفرِضُ علىٰ الحدّادين إنجازَ ما يحتاجُه وجماعتُه من أعمال الحِدادة خلال مُدَّة حُكْمه، ثم يَدفع لهم الأُجْرة التي كان يراها مناسبة، كما في عام 1638م، حيث أقرَّ الحدّادون أنهم وصلَهم من علي باشا محافظ القدس مستحقّاتهم منه، عن المُدَّة منذ وصول مُتسلِّمه[4] محمد آغا إلىٰ القدس حتىٰ تاريخه. وفي عام 1672م أقرَّ شيخُهم باستلام مُستحقاتِهم من عسّاف بك مُتسلِّم القدس. وفي عام 1694م أقرَّ شيخُهم بقبضها من المُتسلِّم علي بيك.

وكغيرِه من مشايخ الحِرَف، كان يَحقُّ لشيخ الحدّادين تشغيل دكّانِ حِدادةٍ خاصّةٍ به، بحيث تكون مُعفاة من الضرائب كافّة.

---

2 الفرَحِيَّة، نساءٌ مارسن اللهو والغناء والرقص، وما شابه ذلك، في الأعراس.
3 يُطلَق على طائفة النوَر: الزط والغجر.
4 المتسلم هو حاكم المدينة، وسُمّي كذلك لأنه يتسلم عَلَم الدولة من سلفه. وهو يتبع المحافظ الذي يحكم منطقة جغرافية أوسع. وكانت محافظة القدس تمتد من نابلس إلى يافا إلى الخليل إلى الأغوار.

حديدُهم ومُنتجاتُهم

كان عملُ الحدّادين يَعتمدُ بداهةً علىٰ الحديد الخام، أو الحديد الخردة، فيشترونه ويصهرونه ويصنعون منه ما يحتاجُه السكان من الأدوات الحديدية. وكان بعضُهم يشترون فولاذاً جاهزاً للتصنيع، وهو حديدٌ مَصهورٌ مُصفّىٰ، به نسبةٌ من الكربون تُكْسِبُه مزيداً من الصلابة. وكان ثَمَنُ الثاني أعلىٰ من الأول بالطبع. ففي عام 1603م، اشترىٰ ثلاثةٌ من الحدّادين المسيحيين ثمانين رطلاً ونصف رطل، من الحديد بتسعة وثلاثين ديناراً سلطانيـاً. وفي عام 1642م بلغ ثَمَنُ ستين رطلاً من الفولاذ ماية وخمسون غرشـاً أسديـاً، كما يظهر في الحجة الآتية:

وقد تراوحتْ مُنتجاتُ الحدّادين من أدواتٍ منزليةٍ بسيطةٍ إلىٰ أسلحةٍ قتالية. فعلىٰ سبيل المثال، كانوا يَصنعون فوانيس حديدية، ومكاوٍ حديدية لكَيِّ الملابس، ومسامير، ومَزاريق[5]، ونِعال، أي حَذوات لأرْجُلِ الخيل، لحساب الحكام، وجنازير وقيود لاستخدامها في سجن القدس، و 'قبّان حديد بسلاسله'، و 'سِكَك وفاسات ومناجل'.

وكانوا يُزوِّدون الصيّاغ بكثيرٍ من مُعدّاتهم، كالمَبارد الحديدية والموازين، وغيرها. وكان من بين منتجاتهم الأوسع نطاقاً: صناعة الأبواب والنوافذ وقضبان الحماية الحديدية للمباني الخاصة والعامة.

ومنها أيضًا "الخطّاف"، إذ أُطْلِقَ علىٰ مُحترِفِ تَنْظيفِ الصهاريج "بيّار"، حيث كانت نظافتُها تتطَلَّبُ "تعْزيلها" مرَّةً كلَّ عامٍ قبْل حلولِ موْسمِ الشتاء، فكان البيّار يدور في الأزِقَّة التي تَكْثُر فيها الصهاريج، حامِلًا معه خطّافًا، وهو عصا في رأسها دائرةٌ حديديّة، وعليها كلاليب عِدَّة، فيُسقطها في الصهريج ويُحرِّكها فتعْلَقُ بها الأوساخُ التي كانت تطفو علىٰ سطح الماء.

5 جمع مِزْراق، وهو رمحٌ قصير.



خطّافٌ محفوظٌ في مَتحفِ التراث الشعبي في مؤسّسة دار الطفل العربي في القدس.

التعاقد مع الفلاحين

بالإضافة إلىٰ خِدْمة الحُكّام وتزويد أهل المدينة باحتياجاتهم، كان الفلاحون في جوار بيت المقدس من أهم زبائن الحدّادين. ونظراً لأهمّية العلاقة بين الطرفين، كان القاضي يُنبِّه علىٰ أنه ʼإذا ظَهَرَ أحدٌ من الحدّادين إلىٰ خارج المدينة ليشتغل بالقرايا[6] علىٰ عادتهم‘، فلا يجوز له ذلك إلا بمعرفةِ شيخِهم وموافقتِه، جرْياً علىٰ العادة القديمة، وذلك في عام 1656م.

وغالباً ما كان شيخُهم يُبْرِمُ عَقداً مع مشايخ القرىٰ، كما في عام 1658م، حيث اتَّفق الشيخ مطاوع بن زايد، شيخُ قرية بيت اكسا، مع نقولا ولد طعيمة، شيخ الحدّادين، وغيره من الحدّادين بالقدس ʼبأن يباصروا[7] علىٰ القرىٰ في معاملة القدس الشريف، ويشتغلوا لهم سائر الأشغال، في تعديلٍ وغير ذلك. وكل من يباشر لإنسانٍ يأخذ علىٰ كلِّ فدّانٍ مَدًّا ونصف حِنطة‘. ويظهر أنّ تقاضي حنطةٍ عِوضاً عن النَّقد كان أكثر ضماناً للحصول علىٰ أجورهم من الفلاحين.

---

6 القرايا: القرى.

7 المُباصَرة تعني: الاتفاق على إنجاز أعمال الصيانة وإنتاج ما يلزم في مدَّةٍ معينة، حسبما فهمتُ من سجلات المحكمة.

وأحياناً كان الحدّادون كافّة يشتركون في العمل، بحيث تتوزَّع عليهم الأجور بالتساوي، كما في عام 1677م، حيث حضر الحدّادون ـوكانوا كلهم من المسيحيينـ وذكروا للقاضي 'أنهم شركاءُ في صِنْف الحِدادة، مُتفرِّقين في دكاكينهم، وأن لهم عند بعض الفلاحين، مُباصَرةً مُشتَرَكةً بينهم، نظيرَ ما صنعوه للفلاحين من سِككٍ وفاساتٍ ومناجل وغير ذلك، وثَمَن حديد. وأن غنايم ولد خليل مُرادُهُ أن يَعتزل عنهم، قبْل بيانِ ما لهم من المُباصَرة المشتركة بينهم'، فاضطرَّ غنايم للتراجع عن مُرادِه.

السكاكين والسيوف

كان صانعو السكاكين والسيوف في بيت المقدس يُشكّلون مجموعةً حِرَفية مُستقلّة، نظراً لأهمّيتها. وكانت تُصنع من الفولاذ الصلب؛ قال عبد الرحمن الشيزري مُنبِّهًا عليهم أنهم: 'لا يَعْمَلُون إلّا الفولاذَ المُصَفَّىٰ لِلسِّكِّينِ والمِقَصِّ والمُوسَىٰ'. وكان الغشُّ في جَوْدة الفولاذ يُرْفع إلىٰ قاضي القدس، كما في عام 1634م، حيث 'ادعىٰ الرجل النصراني، المدعو خشدور ولد نور السكاكيني، علىٰ حسن بن علي بن فواز' أنه اشترىٰ منه أحد عشرة قُرصاً من الفولاذ، فظَهرَ أنّ ثمانيةَ أقراصٍ منها مغشوشة، فأجاب أنّه بيَّن ذلك للمشتري مُسبَقا، وقَبِلَ بها علىٰ حالها.

وقد كانت السكاكين أهمَّ أدوات الذبّاحين والسلّاخين، بالإضافة إلىٰ استخداماتها المنزلية المُتعدِّدة. كما أن السيوف والخناجر بقيت تُستخدَم كسلاحٍ رئيسي حتىٰ أواخر العهد العثماني.



خنجرٌ محفوظٌ في مَتحفِ التراث الشعبي في مؤسّسة دار الطفل العربي في القدس.

وكان أصحابُ هذه الحِرْفةِ يُعيّنون شيخاً عليهم، كما في عام 1611م، حيث حَضَر ستّةٌ منهم، ثلاثةٌ من المسلمين وثلاثةٌ من المسيحيين، 'وهم مِمّن يتعاطون نَصل[8] السكاكين والسيوف، ويُخَضّرون[9] الأسلحة ويَجْلونها'، وطَلبوا تعيينَ الأوستة ناصر الدين بن قاسم الزردكاش شيخاً عليهم، فعيّنه القاضي بعد بضعة أيامٍ 'شيخاً ومُتكلّماً علىٰ طائفة السيوفية والسكاكينية، ...، يساوي بينهم في توزيع ما تحتاج إليه صناعتُهم من فولاذٍ وحديدٍ وغير ذلك من الآلات

8 النصل هو حديدة السيف أو الرمح أو السكين. ولعل المقصود هنا طرقها وترقيقها.
9 أعتقد أن المقصود بذلك صقل جوانبها.

والأسباب'، وذلك بحضور سبعةٍ منهم، خمسةٌ من المسلمين واثنان من المسيحيين.



صانعُ سيوفٍ يعمل في دكّانهِ في دمشق، أواخر العهد العثماني.
(المصدر: مجموعة ماتسون).

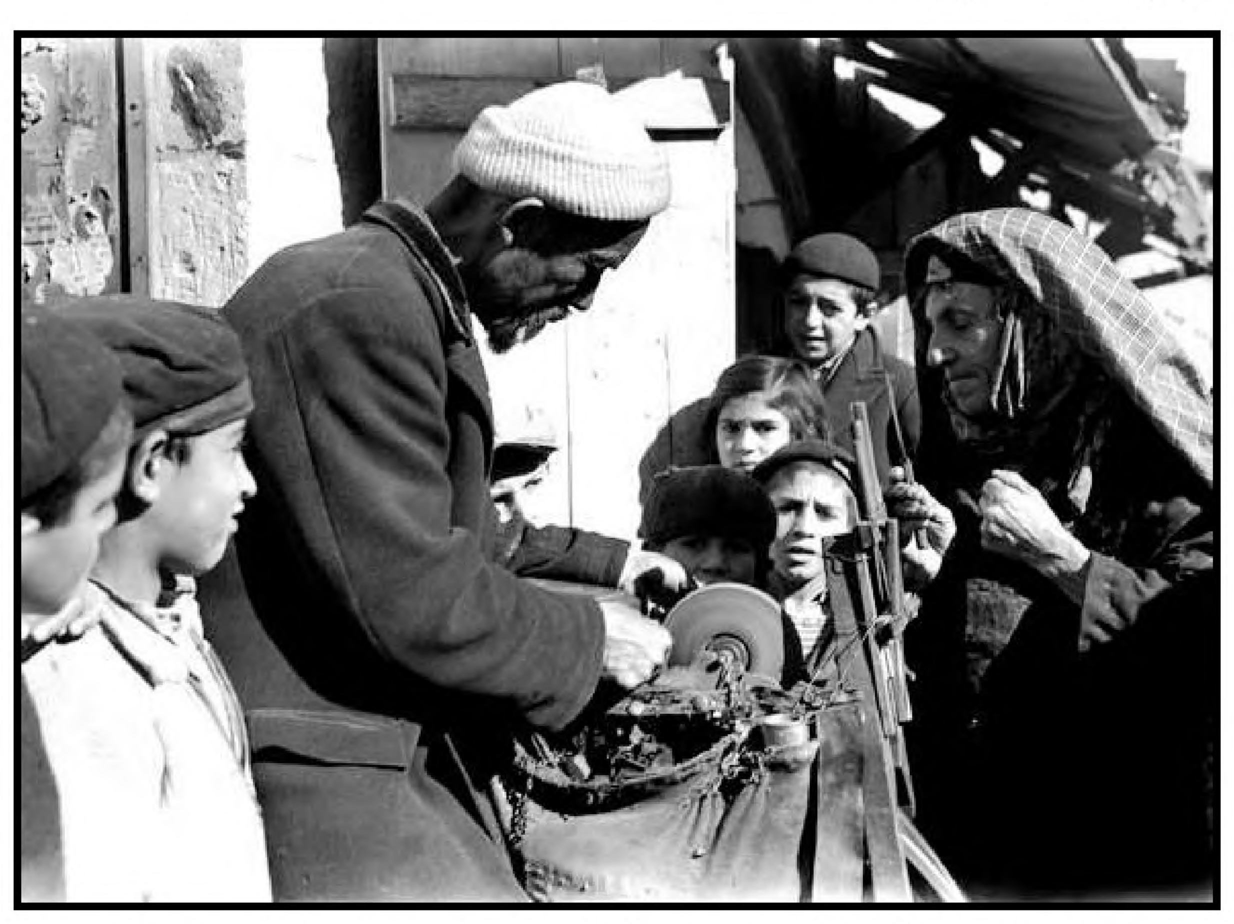
الجِلاخَة

قال جمال الدين القاسمي: 'المُجَلِّخُ هو من يُصْلِحُ ما تثَلَّمَ من السكاكين والأمْواس والمقاريض، بواسطة دولابٍ يُعرف بالجلخ، ...، وهي حِرْفَةُ مَنْ لا حِرْفَةَ له، والذين يتعاطون هذه الحِرْفة بدمشق هم فقراءُ الأفغان المتوطّنون، الذين ليس لهم قُدْرةٌ علىٰ العمل، يتَعيّشون من قليلِ ربْحِ هذه الحِرفة'.



مجلخةٌ محفوظةٌ في مَتحفِ التراث الشعبي في مؤسّسة دار الطفل العربي في القدس.

وكان الحالُ في بيت المقدس شبيهـاً بما كان عليه في دمشق. فقد كان مُعظمُ الجلّاخين من الأفغان والتركستان، حيث اتَّخذوا مركزاً لهم في سوق أفتيموس. واشتُهِر بممارسةِ الجِلاخة أيضًا بعضُ رجال الجاليات التُّركسْتانية الأكارم، وكان منهم قاسم بن إسماعيل البُخاري (ت 1975م) الذي استقرَّ في القدس الشريف قُبَيل النكبة بعد أدائه فريضة الحج، وهو إيغوريٌّ ينتمي إلىٰ مدينة كاشْغَر، إحدىٰ مُدنِ تركستان الشرقية.



قاسمُ البخاري يَجْلَخ سكاكينَ زبائنِه، قبل النكبةِ في إحدى حارات البلدة القديمة.
(المَصْدر: المكتبة الوطنية في أستراليا، مجموعة هارلي، رقم 3695).

الصناعات النحاسية

يُعَدُّ النحاسُ ثاني أهمّ معدنٍ بعد الحديد، من حيث الدَّوْر الذي يلعبه في عَمارة الأرض وارْتقاء الحياة البشرية عليها. وقد استُخدِم في حضارات بلاد الرافدين والشام ومصر منذ آلاف السنين. كما تمّ تصنيعُ أدواتٍ نحاسيةٍ في بيت المقدس عبْر مختلف العصور الإسلامية. وفي وقتٍ لاحقٍ ظهرتْ حِرْفةٌ تُعنَىٰ بصيانة الأواني النحاسية، وهي التبييض.

سوق النحّاسين والمُبيِّضين

كانت سوق النحّاسين والمُبيِّضين تُشكِّل مَقطعاً من طريق باب السلسلة خلال العهد المملوكي، حيث كانت تَبدأ من مفرق حارة الشرف باتجاه الغرب. ولعلَّها استمرَّت كذلك حتىٰ أواسط العهد العثماني، وربما توسَّعتْ جنوباً، فعلىٰ سبيل المثال، استأجر 'مراد بن ميرجان النصراني النحّاس' من أوقاف المغاربة فُرْناً كان واقعاً أسفل درج العين، عام 1565م، فحوَّله إلىٰ دكانٍ للنحاسة.

وكان يُحظر علىٰ النحّاسين والمُبيّضين العملُ خارج سوقِهم، فعندما مارس بعض المُبيّضين حِرْفتهم في بعض أحياء المدينة، وفي حارة اليهود خاصّةً، عام 1644م، نَبّهَ القاضي عليهم 'بأن لا يصنعوا صَنْعة البياض المذكورة بمحلة

اليهود، ولا في محلة غيرها من محلات القدس الشريف، وأن يشتغلوا في دكاكينهم‘، كما يظهر في الصورة الآتية:

وفي أواخر العهد العثماني، بدأ يَظهر اسمُ ’سوق المُبيّضين‘، و’سوق النحّاسين‘، وكانت في الواقع سوقـًا واحدةً تُشَكِّل امتداداً لسوق اللحّامين، من مدخلها الشمالي وحتىٰ مدخل سوق خان الزيت الجنوبي.

وقد ذَكَرَها مُصنِّفو كتاب "السير السليم في يافا والرملة وأورشليم" في أواخر العهد العثماني، كما ذكَرها العارف خلال مدة الاحتلال البريطاني. ثمّ إنّ غالبية دكاكين تلك السوق تحوّلتْ من صناعة النحاسيّات إلىٰ تجارة بيع موادٍّ غذائية، أو بيع التحف والجلود بعد حرب عام 1967م.

مشيخةُ النحّاسين

كانت غالبيةُ النحّاسين في بيت المقدس من المسلمين، إلىٰ جانب عددٍ من المسيحيين، بينما لم أعثر علىٰ أيِّ نحّاس يهودي في المدينة خلال العهد العثماني.

وقد اندمجتْ مشيخةُ النحّاسين بمشيخة المُبيّضين في العهد المذكور، فكان القاضي يُعيّن شيخاً واحداً علىٰ الطائفتين. فعند تعيين شيخٍ عليهم، كانوا يوصفون بالنحّاسين والمُبيِّضين، وأحياناً بالمُبيِّضين فقط، كما في عام 1611م، حيث تم تعيين عبد النبي بن محمد أبي طاقية 'شيخاً ومتكلِّماً علىٰ طائفة المُبيضين، بحيث يساوي بينهم في شراء النحاس ومونة البياض'.

وفي عام 1644م حضر إلىٰ المحكمة ثلاثة عشر من المُبيّضين 'الذين يتعاطون صَنعة بياض النحاس ومَرَمَّته'، وكان من بينهم مسيحي واحد، وانتَخَبوا محمد بن أبي شدوق شيخاً عليهم.

وفي عام 1653م حضر أربعةٌ من 'النحّاسين والمُبيّضين'، وطَلَبوا تعيين خليل بن نور الدين اشتقتلك شيخاً عليهم، بحُجَّة 'أن الشيخ السابق ذَهبَ إلىٰ الحج الشريف'. وربما تشير قِلَّةُ عددِهم إلىٰ أنّ خليل المذكور كان قد تحايل في تعيينه، فقد كان مِن العَسْكر الذين كانوا يَفرِضون بسَطوتهم ما يشاؤون. ففي عام

1656م حضر ستّةٌ من المُبيّضين، وطلبوا تعيين علاء الدين البيروتي شيخاً عليهم، لأنهم 'لا يرضون الشيخ عليهم: خليل بن اشتقتلّك، لكوْنِهِ عسكرياً، ويَشْرُسُ عليهم بلسانه'، كما يظهر في الصورة الآتية:

لكنّ خليل عاد وفَرَضَ نفسه شيخاً عليهم تارةً أخرىٰ، ففي عام 1658م، حضر 'الحاج خليل بن المرحوم الحاج نور الدين المعروف بابن اشتقتلك، الينكجري بقلعة القدس الشريف، شيخُ المُبيّضين والنحّاسين'، واشتكىٰ أنّ مِن العادة ألا يُباع النحاس إلىٰ بمعرفة شيخهم، فنَبّهَ القاضي عليهم بأن يلتزموا بذلك.

وفي عام 1678م ورد أن محمد بشه بن اشتقتلك كان شيخ النحاسين، ممّا يشير إلىٰ تسلُّطِ تلك العائلة علىٰ طائفة المُبيّضين والنحّاسين، حيث طَلَبَ التنبيهَ علىٰ بعض النحّاسين أن 'لا يتعاطون بياضة وبيع النحاس إلا بمعرفة شيخهم'.

أعمالهم ومُنتجاتُهم

تنوَّعتْ مُنتجاتُ النحّاسين واستخداماتها في بيت المقدس، كما في غيرها من الحواضر. وكان أهمُّها الأواني النحاسية المنزلية، حيث كانت من الأدوات الأساسية في أيِّ مسكن. وكانت باهظة الثمن، حتىٰ أن كثيرين مِن ورثة الموتىٰ كانوا يلجأون إلىٰ المحكمة لفضِّ نزاعاتهم حولها بالذات، كما في عام 1683م، حيث ادعىٰ 'مصطفىٰ بن الحاج حسن فواز، الشهير بابن السمين، علىٰ أخيه الشيخ علي، أن من المُخلَّف عن والده المتوفّىٰ نحاساً، وهي: ماعون نحاس وصحن كبير و... وأنه مات والأواني النحاس تحت يده، ويطالبه بحصته'، فأمره القاضي بإحضار الأواني النحاسية المُخلَّفة كافة عن والدهما إلىٰ المحكمة، وتم البتُّ في قسمتِها بين يدي القاضي.

وكان من ضِمن تلك الأواني الأطباقُ المشهورةُ بالصواني، التي كانت تُستخدَم للخَبْزِ في الأفران خاصة. كما ورد ذكر المنتجات التالية في سجلات المحكمة: 'لَكَن نحاس وصطل نحاس وتنجرة نحاس، وحِلَّة نحاس، وشربة نحاس وطاسة رَشْفة[10]، وهاون نحاس، وقدّاحة نحاس'، وما شابه ذلك من الأدوات الأساسية في مختلف المنازل خلال العهد العثماني.

10 طاسة رَجفة: وعاء نحاسي صغير، منقوشة آية الكرسي على سطحه الداخلي، يُملأ بالماء ليشربه الصبي إذا أُصيبَ بالذعر وارتجف.



إبريق ضخم يحمله بائع شراب العرقسوس ويبيع في الأسواق.
محفوظٌ في مَتحفِ التراث الشعبي في مؤسّسة دار الطفل العربي في القدس.

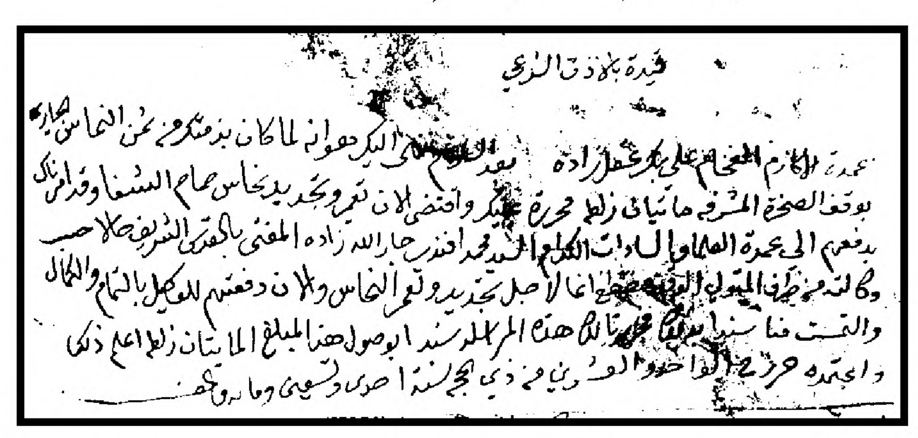
وقد عثرتُ لدىٰ أحدِ بائعي التُّحَفِ علىٰ وِعاءَيْن نُحاسِيَّيْن، يبدو أنهما كانا يُسْتَخْدَمان لجَلْبِ الحَساءِ واللحومِ من مَطبخِ العِمارَةِ العامِرَةِ إلىٰ نُزلاءِ الرُّواق، فعلىٰ أحدِهما النقش الآتي: 'وقفٌ علىٰ رُوَاق المَغاربة الكاين في الحرم الشريف القدسي في غُرَّةِ جُماد أول سنة 1191'، أي في عام 1777م. والثاني منقوشٌ عليه بلُغةٍ رَكيكة: 'وقف لأبو فَردة في رُوَاق 1322'، إلّا أنّ الوعاءَ صُنِعَ قبْلَ ذلك التاريخ بكثير. ويَظهرُ كلاهما في الصورة الآتية:



واستُخْدِم النحاس أيضًا في ضرْب بعض النقود، وسكْب الأختام الرسمية، والدَّوَايات التي يُحفظ بها الحِبْر، وصناعة الثُّريّات، و 'المواعين النحاس المُعدَّة لطبخ القهوة' في المقاهي.

وكانت هناك ’مِصفاةُ نحاسٍ كبيرةٍ علىٰ باب بئر الزيت‘ في المسجد الاقصىٰ، وقَفَها عمر أفندي قاضي القدس عام 1586م. وكانت الأحواضُ المُعدَّةُ للوضوء تضمُّ حنفيّات نحاسية، حسبما ورد عام 1725م.

وكانت المصابن والحمّامات تَعتمد علىٰ القُدور والأسطل والطاسات النحاسية لتسيير أعمالها اليومية. فكان الاستحمام يَتعطّل عند حدوث خللٍ فيها، كما في عام 1559م، حيث كَشَف المحتسبُ علىٰ حمّام البترك[11]، فوجد ’الطاسات غير مُبيَّضةٍ فأمر بتبييضها‘. وفي عام 1570م أبلغ مستأجرُ حمّام السلطان[12] القاضيَ بأنه ’حصل لحمّام الرجال تعطيلٌ بسبب كَسْرِ نحاسِه‘. وفي عام 1761م تبيّن أنّ حمّام الأسباط مُعطَّلٌ منذ مُدَّةٍ، لأن القازانَيْن النحاسيَّيْن كانا مكسورَيْن، فأمَرَ القاضي بصَهرِهما ثم سكْبِهما من جديد.



حُجَّةُ ’تعمير وتجديد نُحاسِ حمّام الشِّفاء‘ عام 1191هـ/1777م.

---

11 كان قائما في الصف الشرقي من طريق حارة النصارى. وهو دكان لبيع سلعٍ للسائحين حاليا.

12 كان قائما في الصف الشرقي من طريق الواد، مقابل الهوسبيس النمساوي. وقد بيع لبطريركية الأرمن الكاثوليك.



مَبْخرةٌ نحاسيةٌ معروضةٌ في المَتحف الإسلامي في المسجد الأقصى، من العهد العثماني.
(تصوير بشير بركات، 1437هـ/2016م).

وكان النُّحاسُ عنصرًا أساسيًّا في تصْنيعِ القنابل في بيت المقدس في أوائل العهد العثماني، وذلك في بِناية الدركاه[13] قرب البيمارستان الصلاحي. ففي عام 1557م حضر إلىٰ المحكمة سنان آغا، دِزْدارُ القلعة والأمينُ علىٰ عملِ

13 'وكانت في زمن الافرنج دار الإسبيتار'. (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، 2/ 47).

الطوبخانه[14]، ومعه 'بقية الطوبجية الواردين من الباب العالي إلىٰ القدس الشريف، لأجل عمَلِ عِدَّة القلعة'، وأبلغوا القاضي بأنّ 'بعض بناءِ سقفِ الدركاه بالقدس، التي يُعمل بها الطوبُ انهدم، وهُدِمَ الفرنُ الذي يُسْكبُ فيه النحاس'، ولم تكن هناك ميزانية مرصودة لتعمير الدركاه آنذاك، فأمَرَ القاضي بتأهيل الدركاه علىٰ حساب 'المال الشريف'.

وكانت أبواب المُصلّىٰ القبلي وقبة الصخرة في المسجد الأقصىٰ تُغطّىٰ بألواحٍ نحاسية، كما في عام 1565م، حيث أُحْضِرتْ 'بُرادة النحاس الذي يُستعمَل صفائحاً لأبواب الصخرة الشريفة'، وتم وزنُها قبل صَهرِها ثم سَكْبها.

إجراءات التبييض

تتعرَّضُ الأواني النحاسية للصدأ جرّاءَ استخدامها، فلا تَصلحُ عندئذ للطهي أو غيره من الاستخدامات. ولذا كانت حِرْفةُ التبييض رائجةً في بيت المقدس وغيرها. وكان من المُعتاد أن يذهبَ المُبيِّضُ أو أجيرُه إلىٰ دار مَن تحتاج أوانيه للتبييض، فيتمُّ تحديدُ عددِها وأصنافِها، ثم يحملها إلىٰ دكّانه، حيث يبدأ بتسخينها، ثم ينظِّفها جيداً بالرمل، ثم يَطْليها بمادةِ القصدير المَبيِّضة. وبعدئذٍ

---

14 أي: مصنع القنابل، بالتركية.

يُبلِّل قطعةَ قطنٍ بمسحوقِ النشادرِ ويَمسحُ بها الطلاءَ فيذوِّبه لينتشر القصديرُ علىٰ الإناء كافّة ويكتمل لمعانُه. وأخيراً يُعيدها إلىٰ دارِ صاحبها، ويقبض أجرته.

وقد شملَ عملُ المُبيِّضين تصليحَ ما أمكنَ من التلف وسدّ الثقوب. وكان ذلك ينطبق علىٰ صفائح الرصاص أيضـًا، ففي عام 1583م، حضر علي بن شدوق المُبيّضُ إلىٰ القاضي وأبلَغَه أنه كان قد عُيّن في وظيفة ترميم الرصاص المُركَّب علىٰ سطح المصلىٰ القبلي وقبة الصخرة، ومَنْعِ تسرُّبِ مياهِ الأمطارِ إلىٰ الداخل، منذ عام 1579م، وطَلَبَ منه تثبيتَه في تلك الوظيفة.



مُبيّضٌ يَطلي قِدْرةً نحاسيّةً في القدس أواخر العهد العثماني. (المَصْدر: مجموعة ماتسون).

السَّنْكَري

ظهرت حِرْفةُ السَّنْكَرة في أواخر العهد العثماني. وقد اختصَّ السنكري ـويُطلَق عليه أيضًا السمكري أو السبّاكـ بصناعة أدوات نحاسية ومعدنية معيَّنة، مثل القناديل والأسرجة وحلل الغسيل. كما اختصَّ بعضهم بصناعة تنكاتٍ من الصفيح. وكان السنكري يرمِّم ما تلف من بعض الأدوات المعدنية، وموقد الكاز خاصة، أي البابور، المستورَد من السويد ومصر والهند.

الصِّياغة

الصِّياغة هي فنُّ صناعةِ مُختلفِ أشكالِ الحُلِيّ من معادنَ نفيسة، ومنها الذهب والفضة وبعض الأحجار الكريمة خاصّة. ويُعتقَد أنها نشأتْ في مصر في عصر الفراعنة، وفي العراق في عصر السومريين والبابليين. وهي بالتأكيد من الحِرَف التي تأخَّر ظهورُها في تاريخ البشرية، لأنّها من مظاهر التَّرَف التي تنشأ بعد الاستقرار والاكتفاء بالاحتياجات الأساسية كافَّة، كالملبس والمأكل والمسكن.

وقد شغفَ الأثرياءُ والملوكُ بتلك الحُلِيّ، حتىٰ أصبح امتلاكها يعكس المستوىٰ الاقتصادي والثقافي لطبقات المجتمع. وكان من بين السلالات الحاكمة التي اشتهرت بشغفها بجمع المجوهرات، قياصرةُ روسيا وسلاطينُ بني عثمان وأسرةُ محمد علي باشا.

أما في فلسطين، فقد تمّ اكتشافُ خواتم ذهبية في كفر عانا[15]، يعود تاريخها إلىٰ الألف الرابع قبل الميلاد، وهي تُعَدُّ أقدمَ استخدامٍ للذهب تمَّ العثور عليه في بلاد الشام. وقد ساهم احتلال الهكسوس لمصر في نقل بعض مهارات الفراعنة

15 قرية تقع بين يافا واللد. يطلِق عليها اليهود "كفار عانا".

إلىٰ بلاد الشام، فظهرتْ الأقراطُ والخواتمُ والأساورُ بكثرة، إضافةً إلىٰ تطعيمها بالأحجار الكريمة.





جرسٌ ذهبيٌّ صغيرٌ جداً، صُنع قبل حوالي ألفَي عام، وتمّ اكتشافُه عام 2011م
في أحد خطوط شبكة المجاري الرومانية في وادي حلوة خارج باب المغاربة.
(المصدر: http://www.wherejesuswalked.org).

وما زال فنُّ الصِّياغة يتطوَّر في فلسطين عبْر العصور الإغريقية والرومانية والبيزنطية، حتىٰ بلغ حدَّ النضوج مع بداية عصر الفتوحات الإسلامية. بل إن فقهاء المسلمين قد وَضعوا أنظمةً تُحدِّد شروطَ تعاطي حِرْفة الصِّياغة بشكلٍ عام؛ قال عبد الرحمن الشيزري:

"في الحِسْبَةِ علىٰ الصّاغَةِ: ...، فَإِنْ بَاعَ شَيْئًا مِنْ الْحُلِيِّ الْمَغْشُوشَةِ لَزِمَهُ أَنْ يُعَرِّفَ الْمُشْتَرِيَ مِقْدَارَ مَا فِيهَا مِنْ الْغِشِّ، لِيَدْخُلَ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ. وَإِذَا أَرَادَ صِيَاغَةَ شَيْءٍ مِنْ الْحُلِيِّ لِأَحَدٍ، فَلَا يَسْبِكُهُ فِي الْكُوَرِ إلَّا بِحَضْرَةِ صَاحِبِهِ، بَعْدَ تَحْقِيقِ وَزْنِهِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنْ سَبْكِهِ أَعَادَ الْوَزْنَ. وَإِنْ احْتَاجَ إلَىٰ لِحَامٍ فَإِنَّهُ يَزِنُهُ قَبْلَ إدْخَالِهِ

فِيهِ، وَلَا يُرَكِّبُ شَيْئًا مِنْ الْفُصُوصِ وَالْجَوَاهِرِ عَلَىٰ الْخَوَاتِمِ وَالْحُلِيِّ إلَّا بَعْدَ وَزْنِهَا بِحَضْرَةِ صَاحِبِهَا. وَبِالْجُمْلَةِ إنَّ تَدْلِيسَ الصَّاغَةِ وَغُشُوشَهُمْ خِفْيَةً لَا تَكَادُ تُعْرَفُ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ إلَّا أَمَانَتُهُمْ وَدِينُهُمْ'.



دكّانُ الصائغ إلياس طوبي، والد توفيق، في عكا، أواخر العهد العثماني.
(المصدر: "قبل الشتات، التاريخ المصور للشعب الفلسطيني"، ص 151).

وقد أُطْلِقَ علىٰ الصائغ في القدس وغيرها من حواضر الشام، خلال العهد العثماني، اللفظُ التركي أحيانـاً، وهو قُيُمجي أو قُيومجي[16]. وما زالت هناك عائلةٌ أرمنيةٌ تُعرَفُ بهذا الاسم في بيروت حتىٰ يومنا هذا.

وكان غالبيةُ أثرياء القدس يَقْتَنون مَصاغـاً مَحليَ الصُّنع. وكان بعضهم يَحمِلون معهم مصاغـاً من بلدان أخرىٰ، ومنهم محمد البديري (ت 1805م)، حيث شمَلتْ تِرْكَتُه 'أساور ذهب صياغة القدس، وأساور ذهب صياغة مصر'.

سوق الصُّيّاغ

تمَرْكَزتْ دكاكينُ الصّاغة خلال مدة الاحتلال الصليبي في الموقع المعروف بشارع المارستان حاليًّا. فقد زار القدسَ زائرٌّ أوروبي قُبيل الفتح الصلاحي، وقال إن دكاكين الصاغة السريان كانت جهة الشرق، ودكاكين الصاغة اللاتين كانت جهة الغرب. أمّا في العهد المملوكي فقد كانت 'سوق الصاغة'[17] تمتدُّ من باب السلسلة إلىٰ دار القرآن السَّلّامية.

واستمرَّ ذلك في أوائل العهد العثماني، ففي عام 1529م أجَّرَ الشيخُ شهابُ الدين أحمد الأوراسي شيخُ المغاربة لإسحق بن سبتون اليهودي الصايغ دكّانًا

16 قُيُوم kuyum: حلي وأوان ذهبية أو فضية. وصانعها: kuyumcu.
17 كما أَطلقتْ عليه العامَّةُ "سوق الساغة".

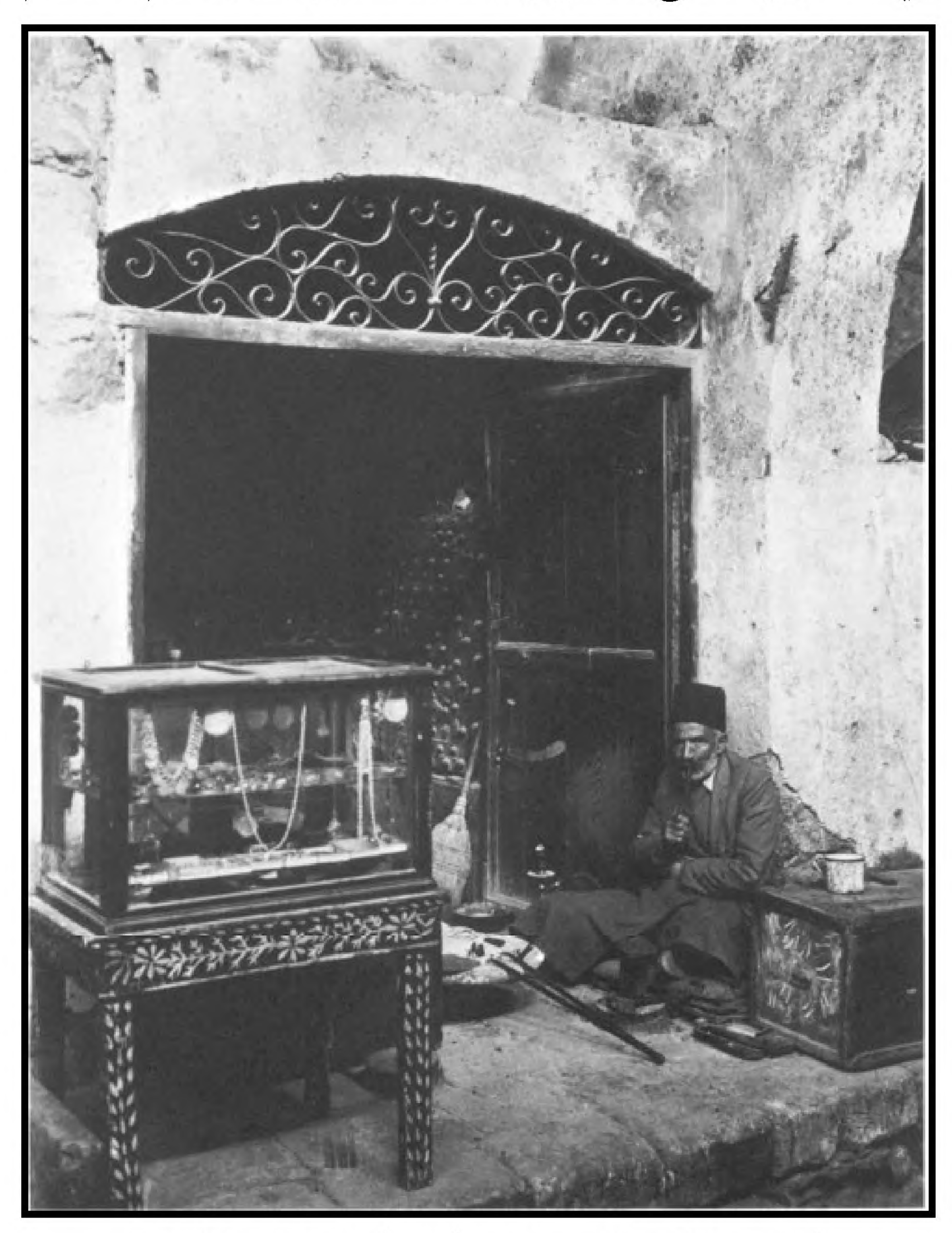
بخُطِّ باب السلسلة. ويُفْهَمُ من سِجلّات محكمةِ القدس أنّ القاضي لم يكن يُلزِم الصّاغةَ بفتْحِ دكاكينهم في تلك السوق.

وفي عام 1557م، اتفقَّ الصُّيّاغ، برضاهم، علىٰ أن يجتمعوا في سوقٍ واحدة، إلا أنّ صائغَيْن يهوديَيْن اشتكيا أنّهما كانا قد استأجرا دكّاناً بسوق القُشاش[18] لمُدَّة سنتَيْن ولم تنْقَضيا، فأذِنَ لهما بالإقامة فيهما حتىٰ خِتام المُدَّة المذكورة. ويُسْتدَلُّ من حُجَجٍ أخرىٰ أنّ السوقَ المذكورة هي السوق الموازية لسوق العطّارين جهة الشرق، والجارية في وقف المسجد الأقصىٰ، فأُطلِقَ عليها سوق الصُّيّاغ.

وحيث كان بعضُ الصُّيّاغ يشتركون في دكّانٍ واحدةٍ في السوق المذكورة، بهدفِ تقليصِ مِقدارِ الأُجْرةِ التي يدفعها كلٌّ واحدٍ منهم، فقد أدّىٰ ذلك إلىٰ تعطيل عددٍ من الدكاكين. فلمّا أدرك ذلك متولي وقف المسجد الأقصىٰ، رَفع الأمرَ إلىٰ القاضي عام 1679م، فأحضَرَ داود بلوكباشي شيخَ الصُّيّاغ ومعه جميع الصُّيّاغ، ونَبّهَ عليهم أن 'يجلس كلٌّ منهم في دكّانٍ علىٰ حِدَة، ولا يشتركون كل اثنين أو ثلاثة، لأنّ في ذلك ضررٌ علىٰ بائع الذهب والفضة، وعلىٰ دكاكين الوقف

18 كانت تقع في طريق باب السلسلة، قرب المدرسة الطازية وتربة حسام الدين بركة خان والتربة الكيلانية.

ومرتزقته'. وكانت إحدىٰ دكاكين سوق الصُّيّاغ مقهىً عام 1794م. وكان 'أبرام بن القُمُجي النصراني الصايغ' يعمل في إحدىٰ دكاكين السوق عام 1812م.



دكّان صِياغة في القدس، ترجيحاً، في أواخر العهد العثماني.
(المصدر: "قبل الشتات، التاريخ المصور للشعب الفلسطيني"، ص 151).

وقد أُطلِق عليها 'سوق الخواجات' أخيراً، في الوقت الذي ازداد عددُ دكاكين الصِّياغة فيها، واستمرَّت تلك التسمية حتىٰ يومنا هذا. ويتناقل مؤرِّخون وباحثون أنها سُمِّيَت كذلك لأنّ غالبية الصُّياغ الذين عملوا فيها كانوا من المسيحيين واليهود، وكان العامة يلقِّبونهم بالخواجات.

وفي أواخر العهد العثماني انتقل الصُّيّاغ إلىٰ دكاكين حديثة أُنشِئتْ في شارع البيمارستان، فيما كان يُعرَف سابقاً بسوق الدبّاغة. ويُشار إلىٰ أنّ ساحة ذلك السوق كانت تُستخدَم لبيع تَرِكات بعض الموتىٰ بالمزاد العلني أحياناً، كما في عام 1925م، حيث بيعت تَرِكَة فوزية الديسي.

كما أن بعض الصيّاغ افتَتَحوا محلّاتهم في أماكن متفرِّقة داخل السور وخارجه. ومنها محل "أندراوس صليبا وأولاده، صايغ وجواهرجي"، الذي كان في دكّان يقع أسفل ما يُعرَف اليوم بالمركز السويدي للدراسات المسيحية خلال مدَّة الاحتلال البريطاني.



محل أندراوس صليبا وأولاده خلال زيارة ملكة إثيوبيا "مَنِّن" إلى القدس في 6 أيلول 1933م.
(المصدر: مجموعة ماتسون).

مشيخة الصُّيّاغ

كانت حِرْفَةُ الصِّياغةِ من أهمّ الحِرَف التي سادت في مُختلَف الأقطار العثمانية، نظراً لعلاقتها بالذهب والفضة. ولذلك كان الباب العالي يتولّىٰ تعيينَ مشايخ علىٰ الصُّيّاغ في مختلف المدن في أوائل العهد العثماني، ففي عام 1593م كان الأستة شمس الدين بن علي بن خالد شيخَ الصُّيّاغ بموجب براءة سلطانية. ثم أصبح محافظ القدس يتابع شؤون المشيخة، كما في عام 1676م، حيث أصدر موسىٰ باشا ميرلوا القدس مرسوماً، جاء فيه:

'إعلامٌ إلىٰ كل واقفٍ عليه، وناظرٍ إليه، من طائفة القُيُمجية، بالقدس الشريف بوجه العموم، كائن من كان، هو أننا عَيّنّا حامل هذه الحروف، قُيُمجي باشي الأسطة محمد [بن عبد الله المهتدي] شيخاً ومُتكلّماً علىٰ جميع القُيُمجية، بتعريفه شيخاً كذلك، وتعتمدوا من قوله فيما يعود نفعُه'.

وتشير سجلات محكمة القدس الشرعية إلىٰ أنّ عدد الصُّيّاغ كان يتراوح من 10 إلىٰ 15 صيّاغاً، في كلّ حين، خلال العهد العثماني، وأن غالبيّتهم كانوا من المسيحيين واليهود، وأحياناً لم يكن من بينهم سوىٰ مسلمٌ واحد.

وكان علىٰ شيخ الصُّيّاغ أن يرعىٰ مصالحَهم ويراقب أعمالهم ويُمثّلهم لدىٰ إدارة المدينة. وكان عليه إلزام كل صائغٍ بأن يكون له كفيل يضمن حفظ حقوق الزبائن، فيما لو غشَّهم المكفول أو فرَّ هارباً، كما في عام 1559م، حيث تضرَّر موسىٰ بن هارون اليهودي شيخُ الصُّيّاغ من عدم وجود كفلاء، فأمَر القاضي كلَّ صائغٍ بأن يحضِر شخصاً يكفله في المحكمة. ويظهر أن شيوخ الصُّيّاغ لم يلتزموا بذلك بعد حين، ففي عام 1632م، تحايل علي بن عبد الله الصائغ علىٰ عيسىٰ بن محمد بلوك باشي وغشَّه، وهرب من القدس، فنَبّهَ القاضي علىٰ ناصر الدين بن قاسم بن الزردكاش شيخَ الصُّيّاغ، أن لا يسمح لأيِّ صائغٍ بممارسة عمَلِه دون أن يكون له كفيل.

وكان شيخُ الصُّيّاغ يساهم أيضاً في تحديد أسعار المَصاغ، كما في عام 1593م، حيث حضر شيخُهم ومعه أربعةٌ من الصُّيّاغ اليهود وثلاثةٌ من الصُّيّاغ المسيحيين، وأقرّوا أنهم 'قَبِلوا أن يكون سعرُ كلِّ درهم فضة حجر خالص من الغشّ ثلاث قطعٍ مصرية، وأجرةُ صياغته عثماني، وأن يصوغوا من بغما وجنازير وهياكل وبلحة الحلق والإنجاص[19]، وأن سعر الفضة المعاملة التي هي ستة من العشرة، كل درهم مع صياغته بقطعتين مصرية، وأن يصوغوا منها أسْوِرة الفلاحين وأطواقهم وخلاخيلهم، كالعادة السابقة'.

وفي عام 1594م، حضر 'نصر الله ولد بولس النصراني الشمّاس الصايغ، وأنهىٰ للقاضي أنه يتعاطىٰ مهنة الصِّياغة بالقدس الشريف، وأنه يصوغ الأساور الفضة الحيدرية والملوزة بالمنفوشة بالمينيا والأطواق الفضية'، وطلب تحديدَ أسعارها، فحضر شيخُ الصِّياغة، وحدَّد سعرَ كلِّ صِنف.

وشَمَلتْ صلاحياتُ الشيخِ أيضاً منْعَ أيِّ أحدٍ من مُمارسة الصِّياغة سوىٰ الصُّيّاغ المعترَف بهم، لأنّهم كانوا وحدهم يتحمّلون مغارم الدولة المفروضة علىٰ حِرْفة الصِّياغة، كما في عام 1615م، حيث اشتكىٰ شيخ الصُّيّاغ من عمران بن موسىٰ اليهودي، فتعهدَّ 'أن لا يشتغل في صَنعة الصِّياغة بالقدس الشريف؛ إنما هو رجلٌ اسكاف'.

---

19 وهي أشكال من زينة الحُلي.

وشمَلت أيضاً فصلَ الأشرار ومنْعهم من ممارسة حِرْفة الصِّياغة، كما في عام 1644م، حيث أَبلغ شيخُ الصُّيّاغ القاضي بأن اثنَيْن من الصُّيّاغ من الأشرار، وطلب منعهما من تعاطي الصِّياغة فمنعهما.

وكان من بين شيوخهم داود بلوكباشي بن محمد بلوكباشي، عام 1681م، حيث أبلغ الصُّيّاغ القاضي بأنه 'ليس له معرفةٌ تامّة بصَنعتهم المزبورة، ولا خبرةَ له بتخمين الذهب والفضة والمَصاغ والحُلِي، ولا يُحسنُ معرفةَ المِحَك، وأنه لا يساوي بينهم في صَنعتهم، ولا يعاملهم معاملة المشايخ السابقة عليهم، وأنه رجل عسكري، ولا قُدرة لواحدٍ منهم علىٰ مراجعته، ويتأذّون منه بسبب ذلك، وقد أضرَّ ذلك بحالهم، ويَلزمُ من ذلك تعطيلهم وتعطيل صَنعتهم المزبورة، وأنه إن بقي شيخاً ومُتكلماً عليهم لا يتعاطون صناعة الصِّياغة بالمَرَّة'، فعزله القاضي.

متفرقاتٌ حول الصِّياغة

أعرضُ فيما يأتي طائفةً من الحوادث المتعلِّقة بمهنةِ الصِّياغة، التي وقعتْ في القدس خلال العهد العثماني.

تشير حجَّةٌ إلىٰ أنّ شيخَ اليهود كان يشتري كميّاتٍ كبيرةً من الفضة، ويبدو أن ذلك أضرَّ بالصُّيّاغ وزبائنهم، فتمّ استدعاؤه إلىٰ المحكمة عام 1530م، حيث 'أشهد عليه مناحم، شيخُ طائفة اليهود، أنه من هذا اليوم وما بعده لا يشتري فضة

من سوق الصّاغة بالقدس الشريف، وإن فَعل فعليه ندرٌ لجهة قبة الصخرة المشرفة'[20].

وكان الصُّيّاغُ يعيّنون دلّالاً يُرشِد الراغبين بشراءِ الحُلِيّ أو بيعِها، كما في عام 1584م، حيث أبلغ الصُّيّاغ، وكان عددُهم أحد عشرة، خمسةٌ من المسيحيين وخمسةٌ من اليهود ومسلمٌ واحد، قاضيَ القدس، بأنهم 'رضوا بأن يكون جرجي بن ينىٰ النصراني دلّالاً عليهم بسوق الصاغة'.

وفي عام 1592م عنَّ للقاضي أن يخالف العادةَ المُعتادة التي تُجيز للصّاغة بيع الفضة المخلوطة[21]، فنَبّهَ عليهم 'أنهم لا يشتغلون الفضة المُعامَلة، ويشتغلون الفضة الخالصة'. وبعد تنفيذ أمْرِه اشتكىٰ إليه ثلاثةٌ من الصُّيّاغ المسيحيين وثلاثةٌ من الصُّيّاغ اليهود، بأنّ ذلك تسبب في انخفاضِ إنتاجهم ومدخولاتهم، فأذِنَ لهم بالعودة إلىٰ العادة القديمة.

وكان بعض الصُّيّاغ يتلاعبون في معايير الذهب والفضة وأوزانهما، كما في عام 1604م، حيث اشتكت صبحة بنت إبراهيم من قرية لفتا، أنها سلَّمت جرجو بن ميخائيل النصراني الصائغ قِطَعَ فضةٍ وزنُها أربعين دِرهمـاً، ليصنع لها منها خُلْخالاً، فلمّا سلّمها إيّاه وَجدَت أن وزنَهُ 33 درهمـاً وأكثرُه نحاسـاً، فطلب

---

20 كان من المعتاد إلزام المسلمين وغيرهم بدفع مبلغ معين لمصالح المسجد الأقصى، في حال مخالفة بعض الأنظمة.

21 وذلك مع تبيين نسبة الفضة فيها للزبائن.

القاضي من شيخ الصُّيّاغ أن يُرَوْبِص[22] الخُلْخال، فتبيّن أنه يحتوي علىٰ 16 درهماً فضةً فقط والباقي نحاساً.

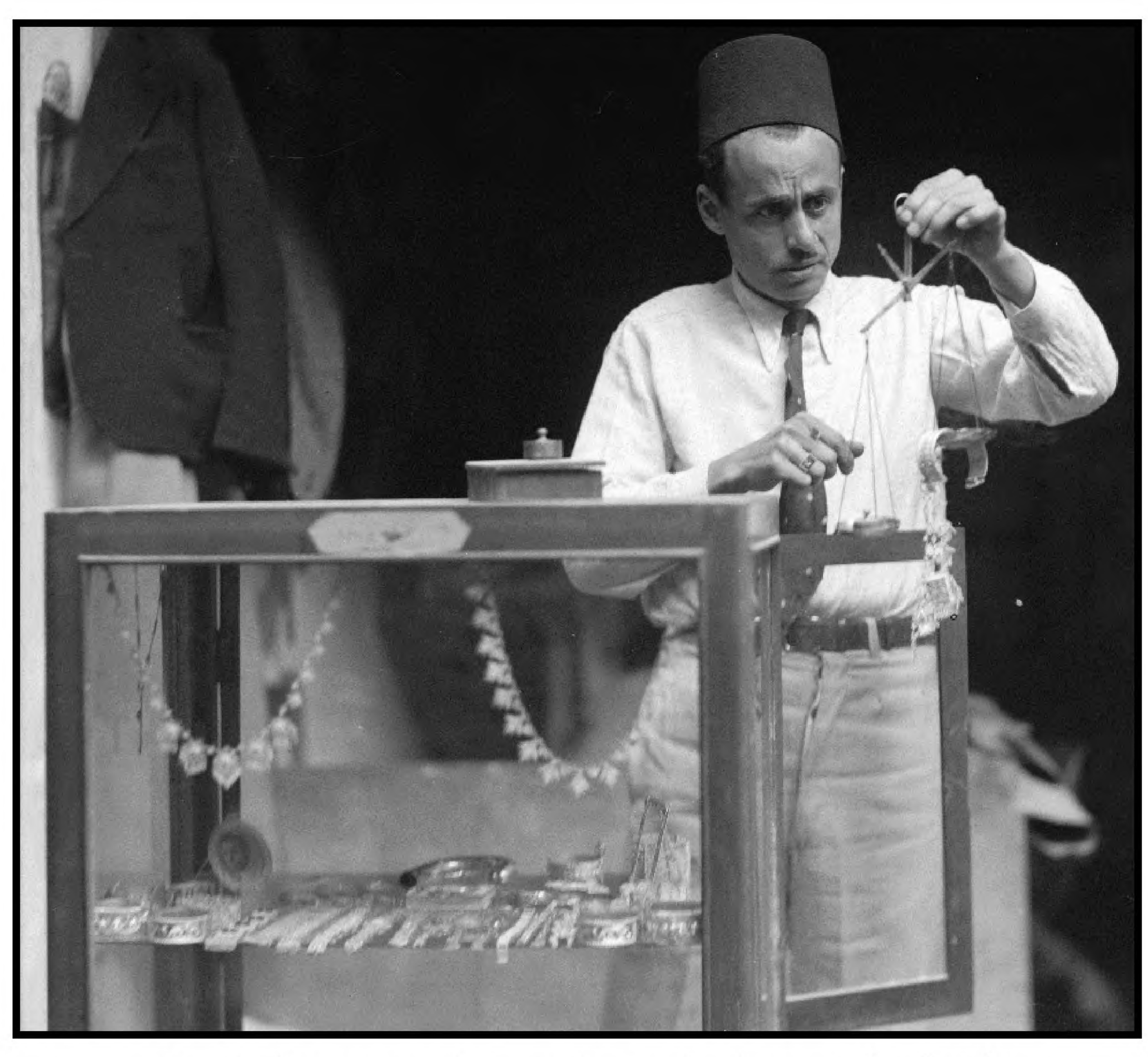
وفي عام 1624م، ادَّعىٰ محمد بن نحيفي علىٰ أرسلان النصراني شيخ الصُّيّاغ، أنه تعاقد معه علىٰ تحْلِيَة سيفِه بفضةٍ خالصةٍ، زنتُها مائة درهم، فاستَخْدم فضةً مغشوشةً وكبَسَ عليها الدمغة التي تشير إلىٰ أن الفضة خالصة، فتمَّ تكليفُ قسطنطين بن صليبا النصراني بتصفية الفضة في الروباص[23]، فثَبُتَ غِشُّ أرسلان، فعزله القاضي من المشيخة لظهور خيانته.

وفي عام 1770م، غاب الصائغ محمد بشه المهتدي عن القدس مُدَّةً طويلة، فتم جرْدُ محتويات دكّانه بسوق الصُّيّاغ، حيث شمَلت: 'زنار صدف بفضة، وعلبة عضم صفرة، ومَبارد حديد، وأحجار خواتم عقيق وقزاز، ومَبارد صغار، وميزان وقوالب رصاص، وحدوة حصان، ومِحَك وحفيت حديد وحجر موسىٰ'، فتم تسليمُها إلىٰ إبراهيم القُيومجي الصايغ ليحفظها أمانةً عنده.

وقد تأثرت حِرْفةُ الصِّياغة في القدس وغيرها من مدن الشام بعد العهد العثماني، إلىٰ حدٍّ ما، باستيراد المجوهرات المزيَّفة من الدول الغربية، حيث أقبلت عليها نساءٌ من مختلَف الطبقات، وأَطلقْنَ عليها: "فالصو".

---

22 أي يصهره ويخلِّصه من المعادن الأخرى.
23 وهو الإناء الذي تُصهر فيه المعادن لروبصتها.



صائغٌ يَزِنُ حُلِيًّا في مَدخلِ دكّانه في القدس خلال مدة الاحتلال البريطاني.
(المَصْدر: مجموعة ماتسون).

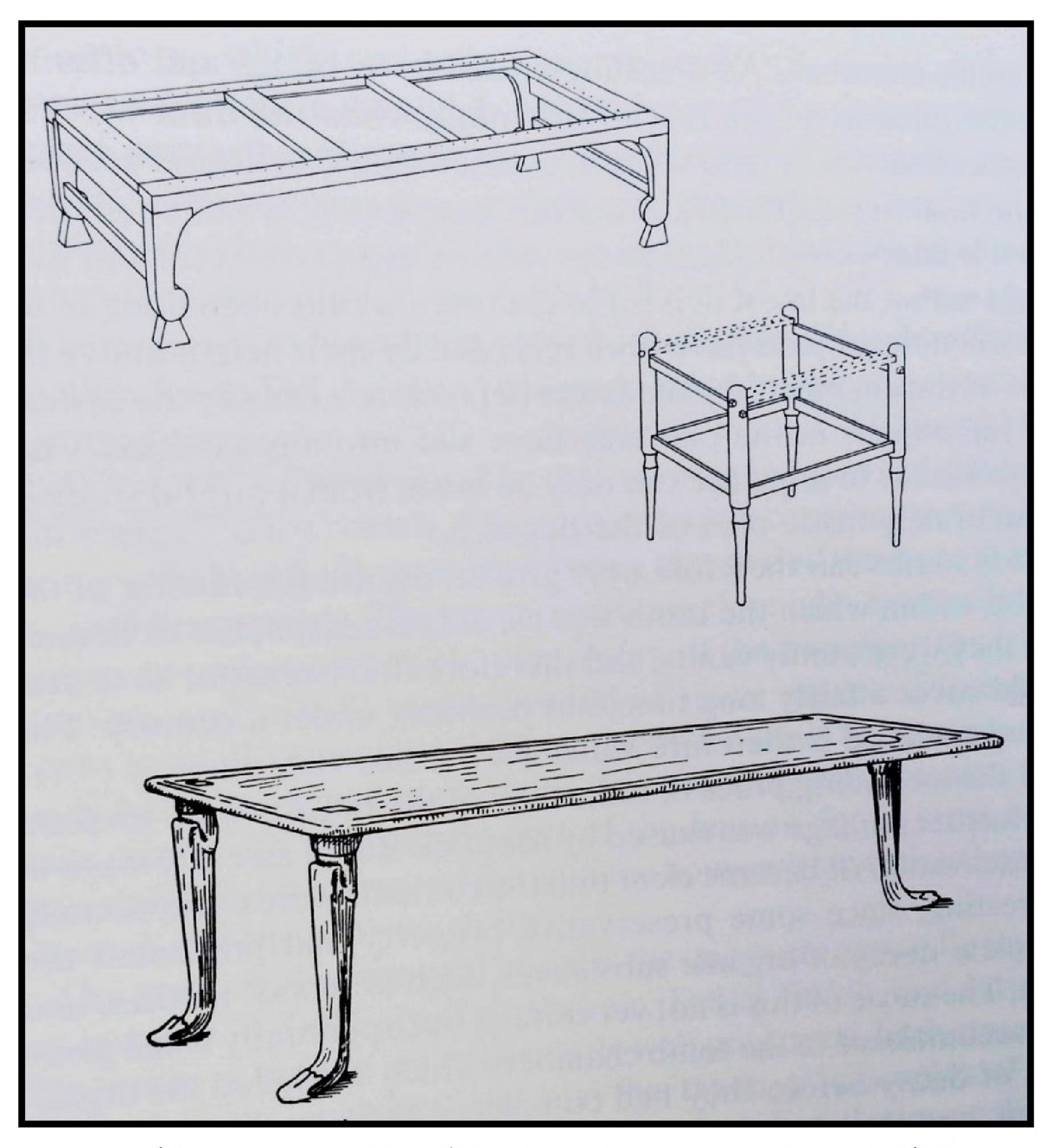
الصناعات الخشبية[24]

استُخدِم الخشبُ منذ قديم الزمان في بناءِ المساكن ومختلف الأدوات المنزلية والزراعية. وبدأت صناعة السفن من لَدُن سيدنا نوح عليه السلام، وجالَ الفنيقيون والقرطاجيون في البحر الأبيض المتوسط في سفنهم منذ العصور القديمة.

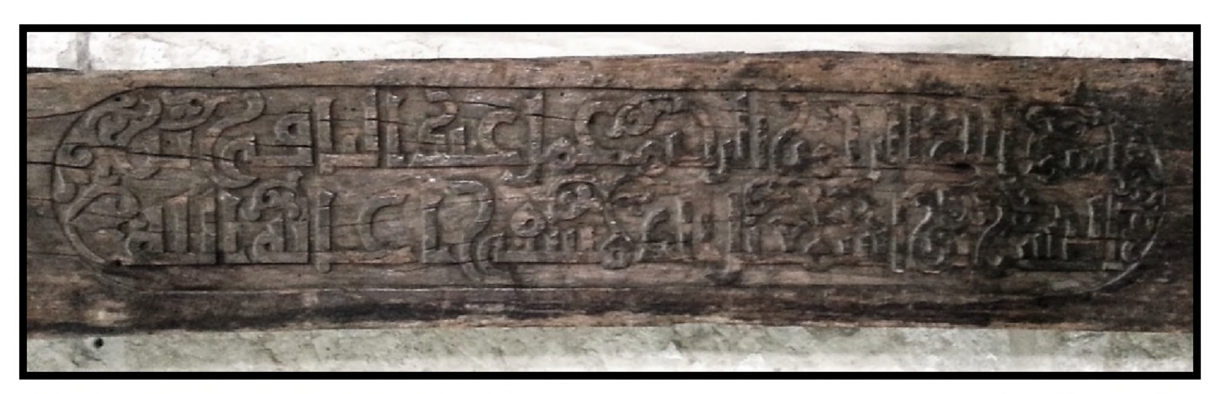
وكان سيدنُا زكريا عليه السلام، من بين مَن مارسوا النجارة في بيت المقدس. فهي حِرْفةٌ لم تنقطع في المدينة علىٰ مرِّ الزمان. وكان تشييد مسجد قبة الصخرة والمُصلَّىٰ القبلي وغيرهما من المباني يعتمد بشِدَّة علىٰ بعض المنتجات الخشبية. وما زال بعضُها محفوظًا حتىٰ يومنا هذا.

وخلال الحفريّات التي أجرتْها عالمةُ الآثار البريطانية الشهيرة كاثلين كينيون في مدينة أريحا التاريخية، تمّ العثور علىٰ مُقتنيات منزلية عدَّة، وكان من بينها قطعُ أثاثٍ خشبية تعود للعصر البرونزي المبكر، وتم إنتاجُها في حدود عام 1600 قبل الميلاد.

24 أستَثْني منها هنا الحفر على خشب الزيتون، حيث يأتي الحديث عنه في الفصل الأخير.



قطعُ أثاثٍ خشبية تعود للعصر البرونزي المبكِّر، عُثر عليها في مدينة أريحا.
(المَصْدر: Archeology in the Holy Land, p. 174.).



قطعةٌ خشبيةٌ كانت في إطار قبَّة الصخرة، تؤرِّخ لترميمٍ أجرِيَ عليها في عهد الخليفة الفاطمي أبي الحسن علي الظاهر (1021-1036م). وهي محفوظة في المَتحف الإسلامي في المسجد الأقصى. (تصوير بشير بركات، 2016م).

ويبدو أنّ النجارين لم يتجمَّعوا في سوقٍ واحدة، حيث لم أعثر علىٰ موقعٍ محدَّدٍ لدكاكين النجّارين في القدس في مختلف العصور.

النجّاورن وشيوخهم

احترف النِّجارة في بيت المقدس رجالٌ مسلمون ومسيحيون، ولم أعثر علىٰ نجّارين يهود خلال العهد العثماني.

وكان النجّارون يَنتخِبون شيخاً عيلهم، كما في عام 1662م، حيث حضر إلىٰ المحكمة أربعة عشر نجّاراً، نصفهم مسلمون والنصف الآخر مسيحيون، وانتخَبوا إسماعيل بن أحمد شيخاً عليهم. وفي عام 1666م، حضر ثمانية منهم، نصفهم مسلمون أيضاُ، وانتَخبوا خليل ولد عطا الله المهتدي لدين الإسلام

شيخاً عليهم. وفي عام 1673م، عَيَّن القاضي عوضَ بن أحمد المُقَرْطَم شيخاً عليهم، عِوضاً عن إسماعيل بن أحمد الشهير بزعيتر، 'بِحُكم أنه لم يتقيَّد بخدمة الصَّنعة المزبورة، ولم ينظر في أحوال النجّارين'.

أعمالُهم ومُنتجاتُهم

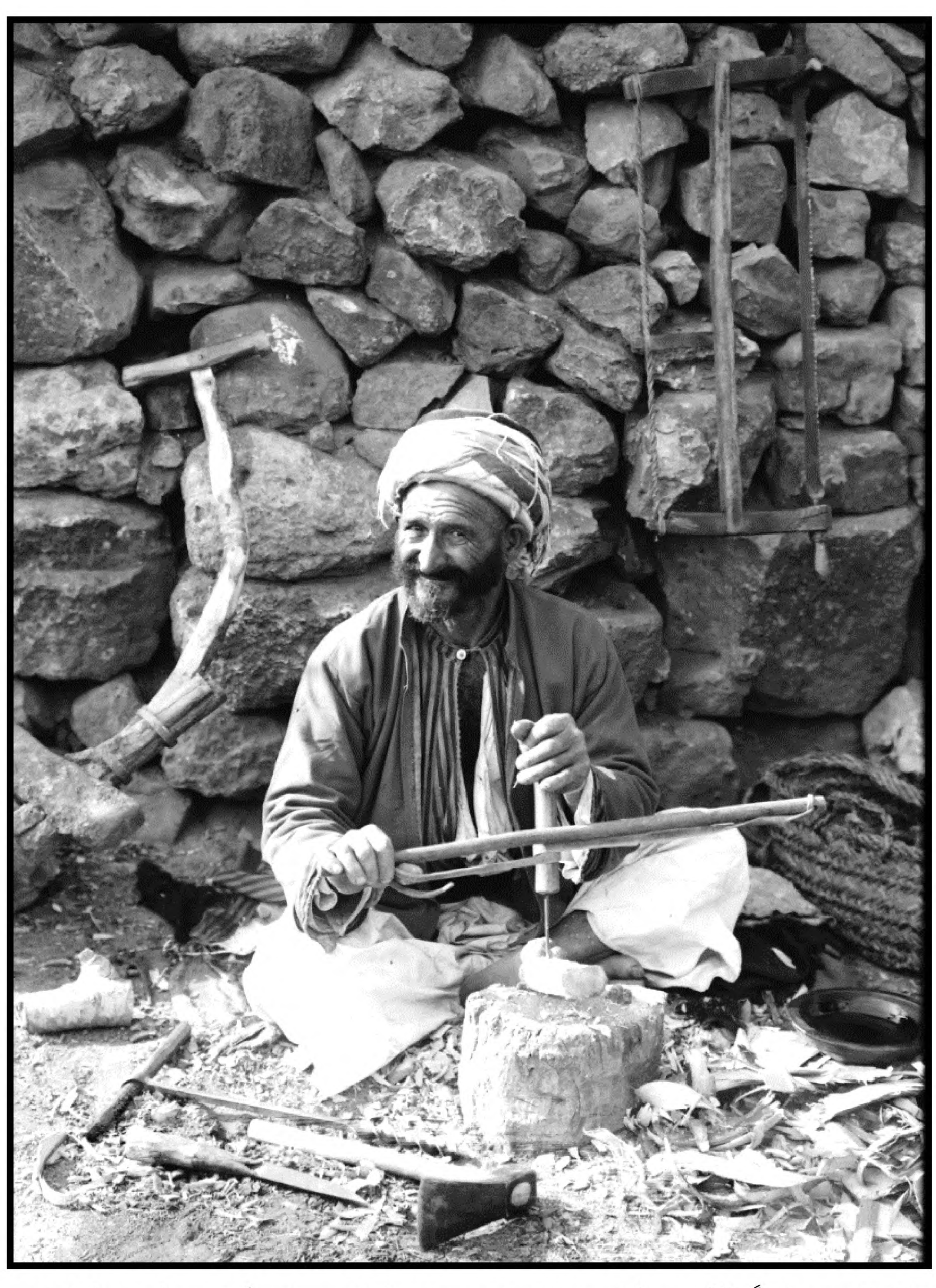
برزت الحاجةُ إلىٰ النجّارين في مختلَفِ الميادين، داخل المدينة وخارجها، حيث كانوا يُنتِجون العديدَ من المُنتجات الخشبية اللازمة لتسيير مختلف شؤون الحياة اليومية، حيث شملت كراسيَ القشِّ التي تُستخدَم في المقاهي.

وكانوا يصنعون الأخشابَ اللازمة لدُور العبادة وأبواب المدينة وقلعتها، ويقومون بترميمها علىٰ الدوام. وكانت إدارةُ المدينة تخصِّص مستودعاً كبيراً لحفظ الأخشاب وغيرها من مستلزمات النجّارين، بحيث تُستخدَم عند الحاجة.

فعلىٰ سبيل المثال، تَعاقدَ حمزة جلبي، متولي أوقاف المسجد الأقصىٰ، عام 1569م، مع 'مصلح الدين بن حسن النجّار، علىٰ إصلاح ومَرَمَّة قبَّةِ الصخرة، وتعديل وإصلاح عَوَجان الهلال الراكب علىٰ قبَّة الصخرة، وعَمَلِ سُلَّمٍ جديدٍ يُتوصَّلُ منه إلىٰ عُلُوِّ القبة، غير السُّلَّمِ القديم لمرورِ الزمان عليه، ومَرَمَّةِ رصاصِ سطحِ المسجد الأقصىٰ، وتجديدِ عِوَضِ الخشبِ الذي داخلُه عُلُّو بئر الورقة'.

وبعد عودة أسعد أفندي، مفتي الدولة العثمانية، من أداء فريضة الحج عام 1615م، عَرَّجَ علىٰ بيت المقدس فشكا إليه أهالي القدس أنّ الجسْرَ الخشبي الكائن بداخل باب القلعة بحاجةٍ إلىٰ تصليح، وأنّ باب الخليل تفتَّتَ خشبُهُ وبقيتْ صفائحُ الحديد سليمةً، فتمَّ الكشفُ علىٰ ذلك، وتم تقدير التكاليف اللازمة.

وبعد عودة كوسا كيخيا، كِتْخُدا الدولة العلية، من زيارته إلىٰ بلاد الشام، إلىٰ الأستانة عام 1817م، أقنع السلطان محمود بأن سليمان باشا، واليَ الشام، 'مقتَدِرٌ علىٰ عمارة المسجد الأقصىٰ علىٰ نفقتِه، فأمَرَ السلطانُ بذلك، وأرسل اثنين من الخبراء إلىٰ سليمان باشا، فأمر سليمان باشا بوغوسَ الأرمني، شيخَ النجّارين بعكا، بالاستعداد للمُهمّة، وعَيّن المعلمَ جرجس منسي، كاتب جمرك عكا، لأجل تحرير اللوازم، وعَيّن عثمان آغا باش جوقدار مديراً للإعمار'، وحُرِّر مرسومٌ إلىٰ مصطفىٰ آغا بن علي أفندي، وكيلِ التكية العامرة، وإلىٰ سائر الأعيان بالقدس يأمرهم بمساندة المذكورين، وعُقد اجتماعٌ حافلٌ حضرَهُ القاضي والمفتي وسائر الأعيان لتحديدِ خطوات العمل.



نجّارٌ يثقب خشبةً بآلةٍ يدويةٍ في إحدى قرى بيت المقدس، في أواخر العهد العثماني.
(المَصْدر: مجموعة ماتسون).

وفي عام 1582م تلف خشبُ باب الناظر، وبرزت الحاجةُ إلىٰ ترميمه. وتبيَّن أن مخزن الحكومة الذي يؤخَذُ منه الخشبُ حسْبَ العادة، كان خالياً من القِطَع اللائقة للترميم. ثم ظَهرَ أن هناك 'خشبتَيْن باقيتَيْن من سور المدينة'، فكَشَف عليهما محمود بن نمَّر معمار باشي واثنان من النجّارين، فأفادوا بأنهما موضوعان علىٰ السور وأنهما بحالة جيدة، فأذِنَ القاضي لنائب ناظر المسجد الأقصىٰ باستخدامهما لترميم الباب المذكور.

وكان بعض الأعيان يقِفون بعض القطع الفنِّية، ومنهم القاضي عبد الرحمن أفندي، حيث وَقَفَ 'خزانةَ خشبٍ مصفَّحةٍ بصفائح مُبيَّضة' علىٰ خُدّام مسجد قبة الصخرة، عام 1558م.

ومن منتجاتهم أيضًا السحّارات التي تُنقل بها الخضراوات، والصناديق التي تُحفظُ وتُنقلُ بها مُختلفُ الحاجيّات، كما يظهرُ في الصورة الآتية:



(المصدر: مجموعة ماتسون).

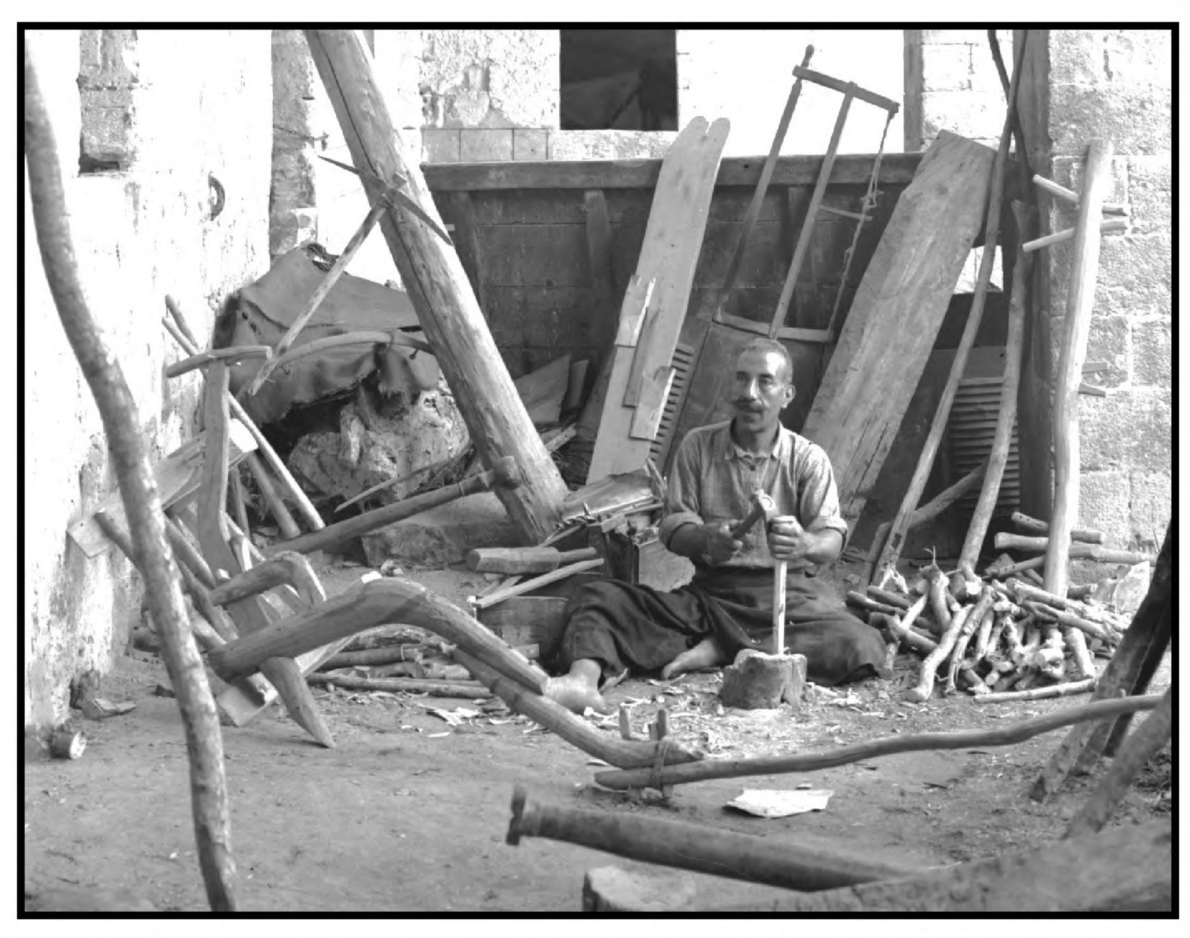
وكان من أهم منتجات النجارين أيضًا: الأدوات الزراعية التي لا يَستغني عنها المزارعون، كالمحاريث ومقابض الفؤوس. وكما ذكرتُ آنفًا حول التعاقدات بين الحدّادين والفلّاحين، كان النجّارون يُبرِمون عقوداً مُماثلة.

ففي عام 1588م، ادعىٰ ثلاثةٌ من النجّارين علىٰ خمسةٍ من أهالي قرية الطور 'أنهم تباصروا لهم من جهةِ النجارة، وأن لهم علىٰ كلِّ واحدٍ منهم ثلاثةُ أمدادِ قمحٍ وستةِ أمدادِ شعير'، فأنكروا ذلك.

وفي عام 1608م، توافَقَ بعض أهالي قرية العيساوية: محمد بن أحمد أبو خَرّوب وسليم بن سليمان وسِلمي بن سالم وزين بن نمر مع سبع بن غنيم النجّار أن يعملَ نجّارًا عندهم مُدَّةَ سَنَةٍ في قرية العيساوية، وأن يكون له مقابل عَملِه علىٰ كلِّ فدّانٍ مُدَّان من الحنطة.

وفي عام 1639م تعاقدَ مشايخُ قرية العيساوية: صالح بن علي ناصر الدين وسِلْمي بن سالم ومباجس بن البريجي، مع منصور النجّار ولد فرّاج النصراني 'أن يكون نجّارًا بقريتهم، ويُصلح أبوابَها وطواحينَها وعيدانَ الحِراثة وسائر ما تحتاجُ إليه أهالي القرية، علىٰ ما جرتْ به العادةُ القديمة'.

وبعد سقوط الدولة العثمانية، تطوَّرت حِرْفة النجارة في بيت المقدس، وتم تأسيس قِسمٍ لتدريب الطلبة علىٰ فنونها في دار الأيتام الإسلامية، وما زال، بالإضافة إلىٰ بعض النجّارين المستقلّين، يمارسون أعمالهم داخل السور حتىٰ يومنا هذا.



نجّارٌ يَصنع أدواتٍ زراعية، أواخر العهد العثماني. (المَصْدر: مجموعة ماتسون).

الصَّدفِيّاتُ والخَشَبيّات

اعتَنىٰ مسيحيّو القدس وبيت لحم وجوارهما بصناعةِ التُّحفِ الصَّدفيّة والخشبيّة، لِما لها من ارتباطٍ بشعائرهم الدينية. وقد اشتُهِر الأرمنُ بإتقانها، وتعلَّمها منهم بعضُ الحِرفيّين العرب.

وكانت غالبيةُ مُنتجاتها تُباع للحُجّاجِ المسيحيين القادمين من مُختلَف البلدان عبْر القرون، إضافةً بعض الزوّار المسلمين؛ قال الشيخ عبد الغني النابلسي خلال زيارته للدِّيار القدسية عام 1690م:

'قريةُ بيت لحم؛ نِصفُ أهلِها القاطِنين بها مسلمونُ والنِّصفُ نصارىٰ. ومن عادتهم أنهم يَصنعون المسابحَ من خشبِ الزيتون، ويخرطونها علىٰ أنواع مُختلفة، ويبيعونها للزوّار، فوقفوا لنا علىٰ حافَّةِ الطريق، وفي أيديهم أشياء من ذلك كثيرة يبيعونها، فاشترينا منهم'.

وورد في سجلات محكمة القدس أنّ بعض التجار المسلمين كانوا في القرن الثامن عشر الميلادي يُشغِّلون بعض المسيحيين من سكان حارة النصارىٰ في صناعة الصُّلبان والصُّور والمسابح، بغير رضاهم _لتدنِّي الأجرة علىٰ ما يبدو_ فأصدر الشيخ مُحَمَّد التافلاتي المغربي (ت 1777م)[25] فتوىٰ بتحريم ذلك،

[25] رَ ترجمته في: دراساتٌ في تاريخ بيت المقدس، ص 657-666.

وأضاف: "ولا يُلزِم أحدٌ النصارىٰ ولا رهبان الإفرنج بشراء الصلبان والصور والمسابح إلا برضاهم لأن البيع بالمكاره والجبر باطل مُبين باتِّفاق علمائنا".



مَعملٌ لصناعةِ الصَّدفِيّات في بيت لحم عام 1297هـ/1880م.
(المَصْدر: Picturesque Palestine, Sinai and Egypt, Vol. I: 133).

تصديرُها

يُقال إنّ نساءَ بيت لحم كُنَّ يُمارِسْنَ حِرْفةَ صِناعة الصَّدفيّات Mother-of-pearl منذ القرن السابع عشر الميلادي علىٰ الأقل. وقد وَردَ أن الأخَوَيْن التلْحَمِيَّيْن جريس وإبراهيم منصور كانا أوّل فلسطينيَّيْن يشاركان في مَعْرضٍ يُقام في الغرب، وهو مَعرض The World Fair الذي أُقيمَ في نيويورك عام 1852م[26].

وشاركتْ فلسطينُ في معرض فيينا عام 1873م، وذلك ضِمْنَ معروضاتِ الدولة العثمانية، حيث شَمَلت تشكيلةً كاملةً من خشب الزيتون والأواني الصَّدفيّة والزُّجاجيّة التي كانت تُصنع في القدس وبيت لحم والخليل.

وكان مُتَسَلِّمُ القدس يَجني مكاسبَ جَمَّةً جرّاء ذلك، حيث كان يتناول رشىٰ ورسومًا 'علىٰ تصدير المواد المُتعلِّقة بالحُجّاج _السنوتواري_ ويزيد عددُها علىٰ الثلاثمائة صندوق، من المسابح والأيقونات والمطرَّزات والصلبان والتماثيل، وما شابه. وكانت مصنوعة من الخشب والحرير والمرجان واللؤلؤ والذهب والفضة، ويُصرَف عليها سنويًّا أكثر من مائة ألف قرش من قِبَل الأدْيرة،

[26] Tourist Products, in: www.palestine-family.net.

وتُصدَّر إلىٰ تركيا وإيطاليا والبرتغال، وخاصّةً إسبانيا. ولذلك كان يستفيد من إنتاجها وبيعها جمهرةُ السكّان، من مسلمين ومسيحيين"[27].





صُورتان لحِرَفيّين يَصنعون الصَّدفيّات في أواخر العهد العثماني.
(المَصْدر: مجموعة الكولونية الأميركية في القدس).

[27] الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ص 12.

تطوُّرُها بعد العهد العثماني

استمرَّ انتعاشُ تلك الصناعات خلال الاحتلال البريطاني؛ قال مُحَمَّد كُرْد علي (ت 1952م): 'واشتُهِرت بيت لحم والقدس بصناعة الصَّدف، يَعملون منه الصناديق الصغيرة لوضْع أدوات الزينة، والمسابح والصلبان والدبابيس والدُّوِيّ والمقاطع، ورسومًا وطيورًا وحيوانات الفيل والأرنب، وما يُصنَع من خَشب الزيتون أشكالًا، دليلٌ علىٰ رسوخ الصناعة. وتُباع في الغرب كميّاتٌ كثيرةٌ منه، لِما فيها من دِقَّة الصَّنْعة وجَمال الأسلوب والتَّفنُّن في الوضع والشكل. ويتنافس الغربيّون في اقتناء هذه المصنوعات. ويُحبِّبُها إليهم كوْنُها من الأرض المقدَّسة'.



حِرَفِيٌّ يمارس الحَفْرَ على خشب الزيتون. (المَصْدر: مجموعة ماتسون).

وكان المجلسُ الإسلامي الأعلىٰ قد قدَّم هديَّةً من تلك المصنوعات للملك فاروق في آب 1937م، وهي مُجَسَّمٌ من الصَّدف الأبيض لمسجد قبَّة الصخرة المشرَّفة وصحنِها، مساحتُه متران مربَّعان وارتفاعُه حوالي متر، وتمَّ صُنعهُ في بيت لحم.

والجديرُ بالذِّكر أنّه يتمُّ انتقاءُ الخشب المُستخدَم في صناعة الخشبيّات من أشجار الزيتون الضعيفة التي لا تُثمِر، بحيث لا يُؤثِّر ذلك علىٰ المحاصيل. وتكاد غالبيةُ مُنتجاتها تَنْحَصِر في رموزِ الديانة المسيحية، إضافةً إلىٰ تماثيل الجِمال وأواني الزُّهور وعُلَب السجائر، وخاصَّة عُلَب الماسون التي يوضَع فيها الشاقوش والمنجل وغير ذلك من رموز الماسونية[28].

وقد بلغَ عددُ معاملِ حفْرِ الخشب في القدس أحد عشر معملًا خلال الاحتلال البريطاني. وكانت غالبيتُها في حارة الباب الجديد إلىٰ أن توقَّف العملُ بها أواخر القرن الرابع عشر الهجري، حيث انتقل حِرَفيّو الحَفْر للعمل في معامل إسرائيلية، فيما استمرَّ مَعْملٌ واحدٌ في الإنتاج داخل السور، في عقبة درويش[29].

---

[28] واقع حركة وصناعة السياحة في مدينة القدس، ص 98.

[29] واقع حركة وصناعة السياحة في مدينة القدس، ص 98- 101.

المراجع

1) أبو جابر، رؤوف سعد، **الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2010م.

2) أبو هدبا، عبد العزيز، **مقالات في التراث الشعبي الفلسطيني**، جمعية إنعاش الأسرة، البيرة، 2011م.

3) بركات، بشير، **تاريخ الصناعات في بيت المقدس**، دار المقتبس، بيروت، 2019م.

4) صلاح الدين، عايد أحمد، **واقع حركة وصناعة السياحة في مدينة القدس**، وزارة الإعلام، ط2، رام الله، 2010م.

5) Tourist Products, in: www.palestine-family.net.

6) http://www.wherejesuswalked.org